أسلوب الاستفهام

يشترط في الجملة العَرَبِيَّة لتسمى استفهامًا أن تسبق بأداة استفهام مذكورة أو مقدرة، وأدوات الاستفهام هي: الهمزة، هل، من، ما، متى، أيَّان، أين، أنى، كيف، كم، أي، وكل هذه الأدوات أسماء ما عدا (الهمزة، وهل) فإنهما حرفان لا محل لهما من الإعراب.

ولعل أهم سمة تميز هذا الأُسْلُوب عن غيره **أن يكون صادرًا ممَّن لا يعلم إلى مَن يعلم أو إلى مَن يتوقع أنه يعلم،** أمَّا إن كان المستفهِم على علمٍ بما يستفهم عنه فإن الاستفهام سينحرف عن أصل معناه إلى معنى جديدٍ وهو ما يعرف عند البلاغيين بالمجاز البلاغي من هذه السمة أعني سمة أن يكون صادرًا ممَّن لا يعلم إلى مَن يعلم أو إلى مَن يتوقع أنه يعلم انطلق البلاغيون ليقولوا بقسمته إلى:

– **استفهام حقيقي:** وهو "طلب العلم بشيء لم يكن معلومًا من قبل بأداة خاصة... أكاتب أنت أم شاعر؟ فالسائل يعلم أنّ واحدًا من شيئين الكتابة أو الشعر قد نسب إلى المخاطب فعلاً ولكنه يتردد بينهما فلا يدري أهو الكتابة أم الشعر".

– **استفهام مجازي:** وهو "الَّذِي لا يقصد به السؤال عن أمر وطلب الجواب عنه".

الاستفهام الحقيقي:

انطلق البلاغيون من فكرة عدم وجود نص يعمل منفردًا من دون معاونة بقية النصوص، فمعنى الصوت عندهم يتولد من تجاوره وانضمامه إلى صوت آخر وكذا المفردات والعبارات والجمل فكل نص له نص أكبر منه يعمل فيه فيؤثر ويتأثر به، والأَسالِيب النحوية هي الأخرى تعمل في داخل هذه الدائرة ولا تخرج عنها فنحن لا نستطيع أن نفهم أسلوب ما من دون الرجوع إلى ما يسبقه أو ما يلحقه من نصوص، إذ تعمل هذه النصوص على توجيه دلالة الأُسْلُوب، ولنتأمل قول الحق تبارك وتعالى في هاتين الآيتين:

١. ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾[1].

---

١) البقرة٢١٥.

٢. ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾(٢).

إذ ورد هذا التركيب: (**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**)، في الآيتين ليعطي الدلالة المباشرة للاستفهام، فهو استفهام من عمرو بن الجموح موجَّه إلى الرسول محمد (ﷺ) حول أمور يجهلها، إذ لم يكن الاختلاف بين التركيبين في اختلاف أسلوب الاستفهام نفسه، فالاستفهام في الآيتين واحد شكلاً إلَّا أن دلالته مختلفة تبعًا لتفاعله مع غيره من الأَساليب داخل النص، فالاستفهام في الآية الأولى عن **النفقة إلى مَن تصرف**، في حين جاء الاستفهام في الآية الثانية ليسأل عن **قدر الإنفاق** ومرجع هذا الاختلاف ـ كما قلنا سالفًا ـ ليس لاختلافٍ في تركيب أسلوب الاستفهام بل لدخول كل استفهام منهما في سِيَاق مختلف، وما يدلُّ على ذلك أن جواب كل استفهام هنا جاء مختلفًا ليناسب ما يسأل عنه، فجواب الآية الأولى أنه قال: **لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**، في حين جاء جواب المقدار في الآية الثانية بقوله: الْعَفْوَ، يقول القرطبي: "قال العلماء: لما كان السؤال في الآية المتقدمة ـ أي الآية الأولى ـ في قوله تعالى: (**وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ**) سؤالًا عن النفقة إلى من تصرف، كما بيناه ودلَّ عليه الجواب، والجواب خرج على وفق السؤال، كان السؤال الثاني في هذه الآية عن قدر الإنفاق، وهو في شأن عمرو بن الجموح ـ كما تقدم ـ فإنه لما نزل: (**قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ**)، قال: كم أنفق؟ فنزل: "قل العفو" والعفو: ما سهل وتيسر وفضل، ولم يشق على القلب إخراجه".

فالاستفهام الحقيقي في هاتين الآيتين جاء متناسبًا مع غرض الآيتين التشريعي وهو في غاية الدقة والروعة إذ عبر عن معنيين مختلفين بتركيب واحد بالاعتماد على مقدرة السِّيَاق وفطنة المتلقي.

الدلالة المجازية:

١. التوبيخ:

قال تعالى: ﴿**أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**﴾(٣).

---

٢) البقرة: ٢١٩.

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾[٤].

فخرج الاستفهام في هاتين الآيتين عن معنى طلب الفهم إلى معنى التوبيخ بقرينتين سِيَاقيتين، هما:

أ . معرفتنا بأن الله سبحانه وتعالى لا يستفهم عن شيءٍ، وهذه القرينة من أكثر القرائن الموجِّهة لدى علماء العربية؛ لأنَّها تحاكي عقيدته فهو يؤمن بأن الله سبحانه وتعالى محيط بكلِّ شيء، ومن ثمَّ فإنها تدعونا للبحث عن معنى آخر لهذا الاستفهام.

ب . معرفتنا بسبب نزول هاتين الآيتين وهي قرينة ثقافية أيضًا، فالآية الأولى جاءت تأنيبًا وتوبيخًا من النبي إبراهيم (عليه السلام) إلى قومه من عبدة الأصنام، بينما جاءت الآية الثانية موجَّهةً من الله عزَّ وجلَّ إلى العلماء من يهود المدينة " قال ابن عباس كان يهود المدينة يقول الرَّجُل منهم لصهره ولذي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين اثبت على الَّذِي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرَّجُل يريدون محمد (صلى الله عليه وسلم) فإن أمره حق فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه"، ومن ثمَّ يُحكم على هذين الأُسْلُوبين بانْحِرَافهما عن معنى الاستفهام إلى معنى التوبيخ.

٢.الأمر:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِين أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[٥].

يرى الفراء أن الاستفهام هنا في قوله تعالى (**أَأَسْلَمْتُمْ**) معناه الأمر، قال: "أولا ترى أنك تقول للرجل هل أنت كافٍ عنَّا؟ معناه اكفف"، وعلى هذا فانَّ معنى الآية موضع الشاهد

---

٣) الصافات: ٩٥.

٤) البقرة: ٤٤.

٥) آل عمران: ١٩-٢٠.

أنَّه قد أتاكم يا أيَّها اليهود والنصارى، ويا مشركي العَرَب من البينات الكثيرة ما يلقي عليكم الحجّة فهل أسلمتم أم انكم بَعْدُ على عنادكم.

ولعلَّ ما يقوي هذا ما نلاحظه من موجِّهات لغوية سابقة ولاحقة في هذا النَّصِّ، فالنَّصُّ السابق لهذا الأُسْلُوب يمهِّد لذلك فالله عزَّ وجلَّ قد ألقى عليهم الحجَّة بقوله: ﴿**جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**﴾، فالمخاطب على علم يمكنه من إدراك عواقب الأمور وهذا العلم مدون في كتاب مثلما هو حال اليهود والنصارى أو منزل على نبيهم مثلما هو حال مشركي العرب، ثم أردف هذا الأُسْلُوب بسياقٍ بعديٍّ يصرف الدلالة عن معناها المباشر ويحدد الـمَعْنَى الجديد لها وهو قوله: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**﴾، وهذا ممَّا لا يتناسب مع معنى السؤال الظاهر، فالبلاغ لا يتم إلا نتيجةَ فعلٍ أُمِرَ به أو نهي عنه لا من خلال سؤال يلقى عليهم، وإيراد الأمر في صورة الاستفهام فضلاً عمَّا فيه من تَعْبِير مؤدبٍ؛ لأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل وأن لا يفعل، فيه أيضًا إغراء بالعمل والحث عليه، ومثل هذا في خروج الاستفهام إلى معنى الأمر قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ**﴾[٦]، أي اشكروا.

٣.التقرير:

قال عبد الله بن معاوية:

أأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عَرَضتْ أيقنت أن لا أخا ليا

فبدأ الشاعر كلامه بتركيب استفهامي يتكون من حرف الاستفهام (الهمزة) الداخل على الجملة الاسمية (أنت أخي) إلا أنه لا يريد منه الاستفهام والقرائن على انْحِرَاف هذا الأُسْلُوب كثيرة كلّها لغوية عَمِدَ الشاعر على تأكيدها منها أنه علّق استفهامه بقوله (**ما لم تكن لي حاجة**)، وقوله (**فإن عرضت**)، أي تلك الحاجة، ثم أكد هذا كله بحقيقة راسخة عنده متيقن منها، فقال: (**أيقنت أن لا أخا ليا**)، يقول المبرّد شارحًا معنى البيت ومقررًا الـمَعْنَى الَّذِي خرج إليه أسلوب الاستفهام: "إنه تقرير وليس استفهام ولكن معناه: أني قد بلوتك تظهر الإخاء فإذا بدت الحاجة لم أرَ من إخائك شيئًا"، وقد تكلم النُّحَاة عن مجيء الاستفهام لمعنى التقرير، "ومن قال باستعمال هل بمعنى قد من القدماء فيما روى ابن

---

٦) الانبياء: ٨٠.

هشام: ابن عباس، والكسائي، والفراء، والمبرد"، يقول المبرّد: "وتكون بمنزلة قد ـ يعني هل ـ في قوله عزَّ وجلَّ: (**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ**)، لأنَّها تخرج عن حد الاستفهام وتدخل عليها حروف الاستفهام نحو قولك: أم هل فعلت؟"، وقد ذكر الزجاج أن هل في قوله تعالى السابق بمعنى قد أتى على الانسان.

٤. النفي:

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ**﴾[٨].

يرى البيضاوي أن (مَن) في قوله تعالى: (**وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ**) خرجت عن معناها الأصلي وهو الاستفهام إلى معنى آخر وهو النفي، فهو استفهام شكلاً نفي معنىً "والمراد به وصفه سبحانه وتعالى بسعة الرحمة، وعموم المغفرة، والحث على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة"، أما (**هل**) في قوله تعالى: (**هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ**)، فهي أيضًا استفهام بمعنى النفي، ويبدو أن دخول الاستفهام على (إلا) التي تفيد الحصر. هو الَّذِي وجَّه هذا الـمَعْنَى، فالأَساليب ـ كما قلنا سابقًا ـ لا تعمل لوحدها من دون معاونة أو مساندة بقية الأَساليب في إنتاج الدلالة الكلية للنص، وهذا ما تنبّه إليه بعض النُّحَاة ولا سيما عندما ناقشوا مسألة خروج أسلوب الاستفهام إلى معنى النفي في هاتين الآيتين لوجود الأداة (إلا) الدالة على الحصر.

٥.الاستبطاء:

يرى أبو حيان الأندلسي أن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿**حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾[٩]، يخرج إلى معنى الاستبطاء اعتمادًا على حال متلفظ القول "إذ ما حصل لهم من الشدة والابتلاء والزلزال هو الغاية القصوى وتناهى

---

٧) آل عمران: ١٣٥

٨) الرحمن: ٦٠.

٩) البقرة: ٢١٤.

ذلك وتمادى بالمؤمنين إلى أن نطقوا بهذا الكلام... قالوا ذلك استبطاءً للنصر. وضجرًا مما نالهم من الشدة"، فحال المؤمنين هذه هي التي تجعلنا نفهم قولهم هذا على أنه استبطاء، لنصر الله ولو جاء هذا الأُسْلُوب نفسه على لسان قوم ليس هذا حالهم لتبدل المَعْنَى، وهو ما أدركه أبو حيان وبنى كلامه السابق عليه.

٦. التعجب:

ينطلق أغلب المفسرين من معلومات ثقافية في تأويل النصوص، ففي تأويل قوله تعالى على لسان النبي سليمان (عليه السلام): ﴿**وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾(١٠)، يقول المفسرون إن الاستفهام في هذه الآية المباركة جاء منحرفًا إلى معنى التعجب؛ لما عرفناه من حال النبي سليمان (عليه السلام) مع الهدهد فهو مسخرٌ له لا يغيب عنه إلا بإذنه فلما لم يجده تعجب من نفسه كيف لا تراه على ما بينهما من ملازمة، فهو (عليه السلام) يتعجب بقوله "(**مَا لِي**) أيْ أيّ شيءٍ حصل لي حال كوني (**لا أَرَى الْهُدْهُدَ**)، أيْ أهو حاضر، وستره عني ساتر"، فالملازمة بينهما هي التي دعت إلى هذا التعجب، أما في قوله تعالى على لسان النبي زكريا (عليه السلام): ﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾(١١)، فالتعجب حاصل من حال النبي زكريا (عليه السلام) وزوجه، فقد بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقر فكيف يكون له ولد مع ما تقدم من أسباب فجاء ردُّه سبحانه وتعالى بأنه يفعل ما يشاء.

٧. الإنكار:

يرى عبد القاهر الجرجاني أن الأسباب التي تدعونا إلى تأويل بعض النصوص التي تحتوي على أداة السؤال إلى معنى الإنكار هو سِيَاق يكون خارج الأُسْلُوب نفسه يتمثل بحال المتلقي أو فعله المستنكر فانه إن ادعى قدرته على أداء عمل أكبر من طاقته أو حاول أن يفعل ما لا يستصوب فعله أو أنه جوز وجود أمر لا شبيه له فإننا ـ في هذه الحالة ـ نلقي عليه السؤال إنكارًا لما يقوله أو يفعله ليتنبه إلى نفسه فيعي ويتفكر، وكثيرًا ما يسبق

---

١٠) النمل: ٢٠.

١١) آل عمران: ٤٠.

الاستفهام الإنكاري ببعض الموجِّهات التي تقطع بعدم إيراد المَعْنَى المباشر وتوجِّه الدلالة نحو الإنكار كالتمهيد بذكر حقيقة ملكه سبحانه وتعالى للسموات والأرض وأن الدين له وحدَه ثم يأتي الاستفهام لينكر عليهم أن يتقوا غير الله الَّذِي يملك كلَّ شيءٍ، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ**﴾(١٢)، وقد لا تأتي هذه الدلائل سابقة للأسلوب كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾(١٣)، فالإنكار جاء لدعوة بعض المشركين النبي محمد (ﷺ) لكي يبتغي غير الله حَكَمًا على الرغم من نزول الكتاب عليهم مفصلاً وهم يعلمون ذلك جيدًا.

٨. التهكم:

قال تعالى: ﴿**قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ**﴾(١٤)، يقول البقاعي أن الاستفهام في هذه الآية المباركة قد خرج إلى معنى التهكم إذ "عنوا بذلك نسبته إلى السفه والغي على طريق التهكم"، فلم يبغِ المشركون من النبي شعيب (عليه السلام) جوابًا لسؤالهم هذا لكي نحمل المَعْنَى على حقيقته.

٩. التمني:

قد لا يكفي سِيَاق واحدٌ في توجيه بعض الدلالات لاسيما إذا ما كانت الأداة مشتركة بين أكثر من معنى، لذا فإن منشئ الرسالة يعمد من أجل التفريق بين المعاني المتقاربة إلى وضع أكثر من موجِّه واحدٍ في كلامه يدفع به ما قد يعتري الأُسْلُوب من غموض، ففي قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾(١٥)، يتجاذب (هل) في قوله: (**فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا**)

---

١٢) النحل: ٥٢.

١٣) الأنعام: ١١٤.

١٤) هود:٨٧.

١٥) الأعراف: ٥٣.

ثلاثة معانٍ هي **الاستفهام** وهو الـمَعْنَى الأصلي الَّذِي ذكره النحاة، و**النفي** بمعنى ليس لنا من شفعاء يوم القيامة فيشفعوا لنا، و**التمني** بمعنى أن أهل النار قد تمنوا الشفاعة في ذلك اليوم، إلا أن السِّيَاق الَّذِي وجد فيه هذا القول هو الَّذِي يرجِّح معنىً على حساب معنى آخرَ فيرجِّح معنى التمني الَّذِي يطالعنا من الحقائق التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ متقدمةً وهي إثباته لتيقن هؤلاء بما جاء به الرسل من قبل (**يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**)، فالأمر أصبح عندهم حقيقة ثابتة لا جدال فيها، والنتيجة التي آلوا إليها أصبحت أيضًا حقيقة مؤكَّدة لديهم فقد لمسوها بأنفسهم فكان الَّذِي يناسب هذا المقام أن تأتي هل في هذا المقال للتمني، ثم إنهم قد عطفوا قولهم هذا بأمنية بديلة لهذه الأمنية وهي قولهم: (**أَو نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**)، ولو كان الـمَعْنَى على غير التمني لما كان لقوله هذا معنى يصح أن نعطفه عليه، والله أعلم.

وقد ينحرف أسلوب الاستفهام إلى معانٍ كثيرة، مثل: العرض، والإيناس، والتحريض، وغيرها من المعاني لدواعٍ سِيَاقية كما أوضحنا سابقًا.